

الإصلاح الحضاري في فكر مالك بن نبي

د.قادري محمد الطاهر - جامعة زيان عاشور الجلفة.

أ . كاكي عبد الكريم - جامعة زيان عاشور الجلفة.

ملخص :

إن المنتبج لحالة المجتمعين العربي و الإسلامي وما يعانيانه من تخلف وتدهور، واضطراب وركود، سوف يدرك ما آلت إليه هذه الأوضاع من درجة متعاطمة الخطورة، ولذا تظن بعض المفكرين لهذا الخطر وحاولوا إعطاء بعض الحلول لإخراج المجتمع العربي الإسلامي من الأزمات التي يتخبط فيها، والمفكر الجزائري مالك بن نبي (*) من أولئك الذين اتسموا بالوعي وشعروا بالخطر فدرسوا الأوضاع بصورة كلية انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، إذ كانت جهوده منصبية لبناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسة للمشكلات الحضارية، وكان بذلك أول باحث ومفكر حاول أن يحدد أبعاد المشكلة وعناصرها الأساسية في الإصلاح من خلال البحث عن أطر علاجية للمشكل الحضاري الذي تعانيه الأمة الإسلامية، فسعى لبلورة المشروع الثقافي الفكري الذي يقاوم خطر التحلل و الاندثار الحضاري. من تقييم العقليات المتحجرة والذهنيات المتخلفة لتتحول إلى عقليات مبدعة خلاقة وتجلى ذلك بوضوح في مصادره المعنونة في سلسلة "مشكلات الحضارة" حيث اعتبرت الثقافة عاملا مهما من عوامل النهوض بالحياة الاجتماعية وأن كل مشكل حضاري في جوهره مشكل ثقافي لأن الثقافة هي روح الحضارة ...

Abstract

The one who follows the situation of the Arabic and Islamic societies and what they suffer from retardation, degradation, perturbation and deflation, will understand to which level these situations reach a degree of danger, some thinkers were a worry about this dangerous situation at this earlier stages, endeavoured to find some solutions to help our societies to overcome these problems;

MALEK IBN NABI is one of those thinkers who studied the situation completely starting from a wide integrated civilized view, his efforts was mainly to build the recent Islamic thinking and in the studding of civilization problems and by this, he was the first researcher and thinker who try to identify the dimensions of the problems, and its basic elements in the reform, through searching of remedy frames for the civilization problem which the Islamic nation is suffering from, so he tried to clarify the thinking cultural project which withstand the danger decomposition and erosion of civilization and make a great change in the retarded morals to creative ones, this aspect was clearly identified in his series "problems of civilization in which he considered the culture as an Important factor among the factors of revelation of social life, and any civilization problem because the culture is the spirit of civilization.

أ- مفهوم الحضارة:

الحضارة كباقي مصطلحات العلوم الاجتماعية كلمة واسعة ذات معنى و دلالات مختلفة فيطلق عليها في: الفرنسية civilisation وفي الإنجليزية civilization ". أما في اللغة العربية هي الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة وهي الإقامة في البدوي " (1). أي أن أصلها مرتبط بالاستقرار في الأرض. ولفض الحضارة قديم الاستعمال وأول من أعطاه المعنى القريب إلى المعنى الحاضر هو ابن خلدون (732-808 هـ) حيث قال في الحضارة: " هي نمط من الحياة المستقرة ينشأ القرى والأمصار يضفي على حياة أصحابها فنا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة. وإدارة شؤون الحياة والحكم وترتيب أسباب الراحة وأسباب الرفاهية " وحسب المفهوم الخلدوني، فالحضارة هي ما يزيد عن الضروري المتمثل في المظاهر المادية قصد إشباع الحاجات الإنسانية في مجتمع ما إضافة إلى ذلك عامل الاستقرار أو السيادة أو الملك للذان نعتبرهما الرحم الذي يمكن أن تنمو وتزدهر منه الحضارة، كما يربط هذه الأخيرة بال عمران حيث كلما زاد العمران اكتملت الحضارة وعليه فابن خلدون يميز بين ما يسيء إلى العمران البدوي و العمران الحضاري، إلى أنه يعتبرهما طوران طبيعيين في الوجود وأن البداوة أقدم و هي أصل الحضارة، وهذه الأخيرة غاية البداوة. أما الحضارة بالمعنى الحديث تعني مجموعة: " المفاهيم الموجودة عند مجموعة من البشر، وما ينبثق عن هذه المفاهيم من مثل وتقاليد و أفكار ونظم وقوانين تعالج المشكلات المتعلقة بأفراد هذه المجموعة البشرية، وما يتصل بهم من مصالح مشتركة أو بعبارة مختصرة جميع مظاهر النشاط البشري الصادر عن تدبير عقلي (4). كما أصبحت هذه الكلمة تطلق على نماذج من النظم السياسية و أساليب الحكم و الخصال الحميدة.

ب- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي:

يبني مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي على أن مشكلة أي شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية، فالحضارة عنده شرط ضروري في كل تجمع بشري و غاية كل مجتمع هي الوصول إلى الحضارة، فهي توفر كل ما هو مادي و معنوي للرقى والازدهار نحو الأفضل، وبهذا المعنى تعتبر هي أساس الحرية و الحماية حيث تحصن حياة الفرد و تؤمنها كما تحافظ على شخصيته سواء كانت دينية أو وطنية، وهذا ما أكده بن نبي في قوله، " الحضارة هي مجموعة الشروط الأخلاقية و المادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا أو ذاك من أطوار نموه " (5). والحضارة عادة ما تنتج في المجتمعات عن طريق حركة و تغير في مجال الفكر والاقتصاد، هذه الحركة تضمن التوازن بين الجانب الروحي والمادي، و هذا خلافا

للجماعات الساكنة التي تعيش في حياتها من دون غاية، فهي حسب تصبغ بصفة التطور، لكن لا ترقى إلى أن تكون أكثر من مجتمعات بدائية تخضع لقانون الغاب الذي يمكن أن يؤدي إلى عدم تحقيق إنسانية الإنسان، و بهذا يكون الإنسان يعيش مرحلة ما قبل التحض، فيقول بن نبي في ذلك " إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان تضع حاجزا بينه وبين الهمجية " (6).

إذا كانت الحضارة من صنع الإنسان عبر التاريخ بعد أن تمدد الطبيعة بالطاقات التي يستغلها أحسن استغلال و لتوجيهها نحو أهداف محددة فإن التاريخ هو أيضا من يصنع المجتمع: " وصناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

1- تأثير عالم الأشخاص.

2- تأثير عالم الأفكار.

3- تأثير عالم الأشياء.

لكن هذه العوامل لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج أيديولوجيا من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص ... وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تنسجم في صورة حضارة يعد ضرورة أيضا" (7).

إن العناصر الضرورية المشكلة للحضارات و التي تحدث نهضة حضارية يحددها بن نبي في المعادلة التالية: الحضارة = إنسان + تراب + وقت (8).

أولا الإنسان:

إن الاهتمام الكبير الذي شغل مالك بن نبي هو الإنسان في صورته الفردية و الاجتماعية، إذ أولاه عناية كبيرة و اختصر الحديث على العنصرين الأخيرين (الوقت - التراب)، فلا الوقت ولا التراب يكفيان لقيام حضارة وفي معادلته الحضارية اعتبر أن الإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية من خلال حركته، فحركة الإنسان تؤدي إلى ازدهار الحضارة في المجتمع، إذ كثيرا ما نجد مجتمعات تزخر بوجود نشاط الإنسان و هذه الحركة تظهر في المجتمع من خلال ثلاثة مؤثرات: الفكر، العمل المال، وفي الجانب الآخر كثيرا ما نجد مجتمعات ساكنة ناتجة عن سكون حركة الإنسان مما يؤدي إلى الخمود وإسدال الظلمات على ذلك المجتمع و من خلال ذلك: " فالإنسان إذ هو محور الشرط الأساسي لكل حضارة و أن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني، فالإنسان إذن محور الفعالية في حركة الحضارة فعليه مدار الاختيار و عطاؤه في إطار حضارته - و بالتالي في حضارة الإنسانية ككل - محدد بالعقل الفكري و التكوين الثقافي المتأصلين في بيئته الحضارية " (9).

ثانياً التراب:

مادة جامدة لذلك على الإنسان تحريكه و تطويعه و يكيفه حسب الفوائد والمتطلبات الاجتماعية وبذلك نخص القيمة الاجتماعية المستمد من قيمة ملكية، فعندما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة، يكون التراب غالي القيمة وحينما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط ويستشهد بن نبي: "المعجزة اليابانية نظرا لما قدمته من تقدم حضاري رغم ضعف تربتها (جبال - جزر)" (10).

ثالثا الوقت :

وليس المقصود به الزمان بل قيمته لدى الإنسان فهو ثروة في مجال معين قد يتحول إلى العدم في مجال آخر، و تظهر قيمته خاصة في أوقات الخطر التي تستيقظ فيها الشعوب من أجل المحافضة على الذات، فالوقت لا يجب أن يضيع في حياتنا ولا بد من استثماره في أمور هامة وفعالة لأن حصيلة ذلك كل وقت هائل صالح للحياة الإسلامية والمسلمين.

وكما أن الاستغراق في العمل يمكن أن يكون له نتائج سلبية على جوانب أخرى والإفراط في تقديم الوقت أيضا له نتائج سلبية كما هو الحال في الغرب الصناعي وأحيانا لا يكون الوقت مهما من أجل الثراء أو المحافظة على الذات، بل مهما لذاته فهو لا يعوض ولا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة أو أن تستعيدها إذا مضت، والعالم الإسلام يعرف شيئا يسمى الوقت، لكنه الوقت الذي ينتهي إلى العدم لأنه لا يدرك أجزاء الوقت من ثانية و دقيقة وساعة فهو لم يكتسب بعد، مفهوم الوقت الحقيقي، والتربية هي الوسيلة الوحيدة لكي يتعلم قيمة هذا الأمر، ولن يحدث ذلك إلا بعد مرحلة تجريبية من خلالها نعلم الطفل والمرأة، والرجل، تخصيص نصف ساعة يوميا لقضاء مهمة منتظمة وفعالة، وفي نهاية المطاف نجد حصيلة هائل من ساعات العمل لصالح الحياة الإسلامية، وسيثبت نصف ساعة هذا عمليا فكرة الزمن في العقل الإسلامي، مما يؤدي إلى زيادة التطور الفكري والروحي والثقافي وهذه حسبه هي الحضارة، ويورد مالك بن نبي التجربة الألمانية التي خرجت من الحرب العالمية الثانية وقد تحطمت كل نظمها وأجهزتها الإنتاجية ولم تبقى لها سوى العناصر الثلاث، الإنسان، التراب، الوقت، إلا أنها في غضون عشر سنوات أنشأ شعبها صناعات ضخمة والسبب في ذلك هو أن ألمانيا فرضت على شعبها العمل لمدة ساعتين إضافيتين بعد العمل اليومي تطوعا لصالح المصلحة العامة و هذا هو سر نجاحها، و من هنا يمكن إدراك قيمة الوقت مباشرة.

يمكن دراسة دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة عن طريق منهج يقوم على معطيات التاريخ وفق مقاييس التحليل النفسي وهذا المذهب حسبه كفيل ببيان دور الفكرة الدينية في توجيه سلوك الفرد وتنظيم غرائزه لتبين أهمية الدين في بناء الحضارة، يقوم مالك بن نبي بتحليل دورتين من أدوار الحضارة هما الحضارة الإسلامية و الحضارة المسيحية فالعرب مثلا قبل

نزول القرآن لم تكن سوى قبائل بدوية في صحراء قاحلة و كذلك لهم العوامل الثلاث، الإنسان، التراب، الوقت، لكن كانت مقدسة و جامدة يعني هذا أنه لا بد من أن يربطها الدين الذي يرشد ويدفع السلوك و الأخلاقيات لبناء الحضارات، كذلك هو الحال بالنسبة للمسيحية نظرا لوجود تشابه تاريخي بين كلتا الواقعتين فكلاهما يمرا بحالات تطورية ثلاث هي: الميلاد، الأوج، الأفول وتسمى بظاهرة الحضارة⁽¹¹⁾ حيث أنه علينا أن ندخل في كل طور من أطوارها الفكرة الإسلامية لاعتبارها الأصل و الإنسان المسلم باعتباره سند هذه الفكرة.

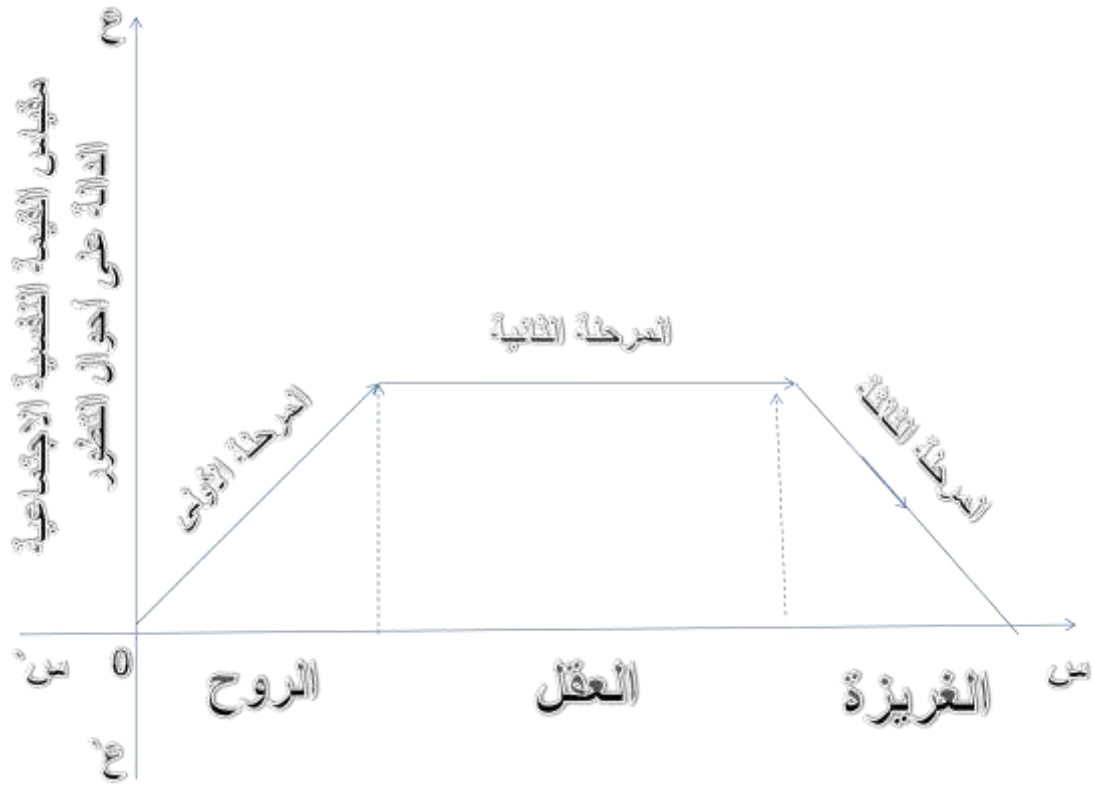
فالفرد عند النقطة الصفر يسمى عند بعض المؤرخين المسلمين " الفطرة " والإنسان في هذه المرحلة يكون طبيعيا، وعند دخول الفكرة الدينية يتم إخضاع الغريزة وهذا الإخضاع ليس معناه القضاء عليها و إنما تنظيم وظيفتها، لأنها لم تلقى بل أخضعت لقواعد نظام معينة، وعندما تستخدم الفكرة الدينية إخضاع الغرائز بمعنى كبتها دون القضاء عليها حينها يمارس الإنسان حياته الجدية حسب قانون الروح، الذي ظهر مع بلال بن رباح عندما أخضع للتعذيب إذ كان يقول أحد، أحد و هنا صوت الروح هو الذي تكلم أما صوت الغريزة فقد صمت، كذلك المجتمع الإسلامي الذي كان يتكلم بلغة الروح و بالتالي: " فالطور الأول من أطوار حضارة معينة، الطور الذي نروض فيه الغرائز وتسلك في نظام خاص يكبح جماحها، ويقيد انطلاقها"⁽¹²⁾.

ويواصل المجتمع في تطوره فتظم له مشاكل و مستجدات تجبره على الانعطاف نحو منعطف جديد يلبي له حاجياته فإما أن يتطابق على النهضة مثل الحضارة الأوربية وإما نحو السقوط شأن الحضارة الإسلامية وفي كل الحالات فإن المنعطف هو منعطف العقل غير أن هذا الأخير لا يملك سيطرة الروح على الغرائز و هنا تبدأ الغرائز بالتححرر، ويعتبر مالك بن نبي بلوغ الحضارة يلتقي من وجهة نظر العلل Ethologie البحث عن بدأ مرض اجتماعي معين يجذب انتباه المؤرخين وعلماء الاجتماع بعد، لأن أثاره المحسوسة لا تزال بعيدة و هنا تواصل الغريزة المكبوحة بيد الفكرة الدينية سعيها إلى التحرر، و بهذا تستعيد الطبيعة سيطرتها على الفرد والمجتمع شيئا فشيئا، وعندما يبلغ التحرر تمامه وتسيطر الغريزة بصفة كلية على مصير الإنسان يبدأ الطور الثالث⁽¹³⁾.

في الطور الثالث من الدورة الحضارية: تستقر الغريزة عن وجهها نهائيا وبذلك تنتهي الوضيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وتعود الأشياء كما كانت في المجتمع المنحل، وهنا تتمدد دورة الحضارة⁽¹⁴⁾

فالدورة الحضارية تبدأ عند دخول فكرة معينة في التاريخ و تنتهي عندما تفقد الروح نهائيا هيمنتها على الغرائز المكبوتة.

ولترجمة هذه الاعتبارات نحصل على صورة يوضحها مالك بن نبي خلال المعلم الديكارتى⁽¹⁵⁾:



ج - مفهوم الإصلاح:

تعرف مادة الإصلاح من الناحية اللغوية أنها: "مشتقة من الفعل أصلح، صلح، وصلح تدل على تغير حالة الفساد، أي إزالة الفساد عن الشيء و يقال أيضا هذا إصلاح لك أي يوافقك ويحسن ويقال أيضا صالح لكذا، أي فيه أهلية للقيام به و بصفة عامة إصلاح ذات الفساد " ... (16)

وللإصلاح عدة معاني منها ما تدل على إصلاح الأراضي، أي تحويل الأرض من جذباء إلى منتجة للمحاصيل، كما تدل على الإصلاح الزراعي بتقييد الملكية الزراعية دون تجاوز حدا معين فإذا حدث تجاوز لهذا الحد يكون نزع الملكية تعويض عادل، و لفض الإصلاح يطلق أيضا على الحركة الدينية، إذ غالبا ما يكون على شكل ثروة، فنجد من الناحية التاريخية الإصلاح الديني في أوروبا يوحى بثورة دينية حدثت في القرن الـ 16 م بدأ بشكل حركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية للتحويل بعد ذلك إلى حركة عقائدية، عرفت بالبروتستانتية و من أهم ممثليها لوثر و كالفن.

أما في القرآن الكريم وردت لفظة الإصلاح، لكن بتفسير مختلفة كقوله تعالى: " قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاقُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " . (17)

وتفسيرها أن رسول الله (ص) يقول: " لم أكن أنهاكم عن أمر و أرتكبه، أي فيما أمركم و أنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي و توفيقي في إصابة الحق فيما أريد إلا بالله أرجع إليه في جميع أموري " . (18) وكذلك لفظ الإصلاح وردت في قوله تعالى: "لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا⁽¹⁹⁾.

وتفسيرها أن الكثير من كلام الناس ليس في خير إلا من كان كلامه عن صدقه أو أمر بمعروف أو إصلاح بين الناس وقد أجاز الله حتى الكذب إذا أريد به إصلاح ذات البين أي إضفاء الود في العلاقة بين شخصين كانا قد اختلفا.⁽²⁰⁾

د - مفهومه عند مالك بن نبي:

إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي فإننا نجده حافلا بالجهود، المحاولات في ميدان الإصلاح والتجديد ومن أبرز الممثلين لفكرة الإصلاح نجد مالك بن نبي الذي وضع مشروعا إصلاحيا قصد الإصلاح والتغيير للخروج من المأزق الغالب على الفكر السياسي العربي الإسلامي و ذلك لما يزيد عن قرنين قصد تحرير العالم مما يعانيه من فساد واستعمار الشيء الذي جعله يتخذ موقفا واضحا من رجال الإصلاح فجعل المصلحين تجاوزوا السلبيات وحطموا معوقات التقدم، لكنهم لم يستطيعوا وضع خطط للإصلاح وبرامجه ويؤكد بن نبي ذلك: "أن التحديد الإيجابي فهو أن قد وضع لنا مجمله إلا أنه لا يزال غامضا غير محدد"⁽²¹⁾ فكانت انطلاقته الأولى في مشروعه الإصلاحية من الحركة الوهابية القائمة على فكرة التوحيد وتنزيه العبادة عن كل ما يربطها بالماديات ذلك ما جعلها تتشدد في بعض الجوانب الشرعية والأحكام وكذا المواقف المتطرفة كل ذلك أتى بالدفع إلى حد المغالاة وركز في مشروعه على مسألة الإصلاح السياسي الذي جاء جمال الدين الأفغاني (1839) واعتبره طريقا للتقدم لكون إصلاح الواقع الإسلامي يبدأ من الأرض العربية فهي مهد الإسلام لنزول القرآن فيها، وبالتالي فإن انطلاق الأفغاني من واقع إصلاح الأرض العربية أعطى لحركته سرعة الانتشار فأثر بشخصيته القوية في كثير من الشباب في العالم الإسلامي وانبثقت عن حركته الإصلاحية حركات سياسية ذات نزعة وطنية قائمة على منطق عقلي.

مشروع الأفغاني كان بمثابة بداية النهضة العربية التي أحييت أمواتها و غيرت ما يوجد في النفوس من تقاليد و أدت إلى الانتقال إلى حياة جديدة، فدور الأفغاني لم يقتصر على الإيقاظ و التحريك فقط وإنما الاستنهاض أولا و وضع اللبنة للمشروع المستقبلي ثانيا، فوضع مشروعا ثوريا متكاملا قيمته الأساسية هي التغيير، فنجح في غرس بذوره مشرقا، ومغربا وبذلك اعتبره بن نبي رائد الحركة الإصلاحية والمحرك الرئيسي لها.

تتلمذ على يد الأفغاني محمد عبده (1849-1905م) الذي كان دوره متكامل مع أستاذه الأفغاني فشاركه في الكثير من مشروعاته، كما اعتمد الإصلاح التربوي الاجتماعي طريقة للنهوض والتقدم ويرجع بن نبي هذا المنهج إلى البيئة التي نشأ فيها محمد عبده. فواجه مشكلة الإصلاح بعد مواجهته لحقيقة ظروف الحياة الإسلامية، ولحل تلك المشكلة لابد من التركيز على

التربية وإعداد الفرد إذ يتم ذلك بالبداية بمسائل علم الكلام أولاً ومعالجتها كمقدمة إصلاحية بوضع فلسفة جديدة من أجل تغيير البشرية، واعتبار العقيدة الإسلامية متأصلة في الإنسان عبر التاريخ ثانياً لأن صلاح الفرد في عمله بمثابة صلاح المجتمع.

إلا أن بن نبي واجه نقداً لمحمد عبده حين قال لا بد من البدء بمسألة علم الكلام: " ظن أن الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة، حتى يمكن تغيير النفس ... و علم الكلام ما لا يتصل بالواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ، والمسلم، حتى ما بعد الموحدين لم يتخل مطلقاً عن عقيدته، فلقد ظل مؤمناً، وبعبارة أدق ظل مؤمناً متديناً و لكن عقيدته تجردت من فعاليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي و عليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فعاليتها و قوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي" (22) . كما أعطى لنا بن نبي صورة ناطقة عن واقع عايشه من خلال الإصلاح الذي جاء به أين باديس حين تأسيسه لجمعية العلماء المسلمين كونه نقل الثورة إلى ميدان العمل الجماعي. كما وجه انتقاده إلى المعلمين لما كتبوه بحيث يكون برنامج العمل العربي الإسلامي على مر السنين، لكن بن نبي اعتبره مستحيلاً لأنه من سنه الله في الخلق تبدل الأحوال وتغييرها و تقلبها إذن فالثبات مستحيل.

خاتمة:

إن القراءة النقدية لواقع الأمة الإسلامية، تسوق إلينا حقيقة أزمتنا الحضارية بكل أبعادها الحضارية والنفسية والاقتصادية والثقافية، السياسية والتربوية، التي وقفت حجر عثرة أمام كل محاولة في سبيل التقدم والرفق. فحين نجد الدول الغربية تعيش مرحلة هامة من التحولات والانتقالات الناجحة والتي تأثر منها العالم في ملامحه وتقسيماته، و نتساءل أين نحن في العالم العربي والإسلام من ذلك ؟ هذا التساؤل أدى إلى ضرورة التفكير الجاد في سبل النهوض وفتح ملف حضارتنا لدراسته وتقويمه ومراجعته. وقد كان مالك بن نبي من خلال أفكاره و نظرياته طموحاً إلى التغيير بتجاوز أثر الفكر الغربي على الفكر الإسلامي فوضع يده على الداء لتشخيصه وإيجاد الدواء المتمثل في حلول أقترحها من خلال مؤلفاته مؤكداً على موقفه أن النظام الجديد الذي ترسي أسسه الدول الكبرى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ليس هو النظام المنشود الذي تبحث عنه غالبية الشعوب و الدول.

وقد رد جذور هاته الأزمة إلى وجود خلل في النسق الثقافي والفكري كما حدد الدخول في التاريخ وفق منطق القائم على النص الصريح الذي مصدره القرآن الكريم: "إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". فهذا النص قد حدد بدقة شروط التغيير وهو تغيير النفس الإنسانية وتحريرها من الجمود و التخلف إلى الفعالية الحضارية و قد ركز مالك بن نبي على ضرورة

بناء ثقافة سليمة من أجل تحقيق إصلاح حضاري شامل أي تغيير الوسط الثقافي وتحديد المنظومة الفكرية مؤكداً على ضرورة الإنسان في المجتمع. وعلى الرغم من أن أفكار مفكرنا العظيم لم تجسد في واقعنا فإنها أسست انطلاقاً للذين يعملون على إرساء قواعد متينة للإقلاع الحضاري للأمة، كما أصبحت أفكاره موضوع بحث ودراسة في الدول الغربية وهذا إن دل على شيء إنما يدل على حجم الأفكار التي طرحها ووضعها مالك بن نبي رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

النتائج و التوصيات:

- لبناء نهضة جديدة يجدر الارتكاز بداية على الإسلام كمنهج (عقيدة وعمل) في كل المجالات لأنه الموجه والضابط في حركة التحضير و مناهج الأصالة الملتزمة بالتراث و المحددة لتطلعات المستقبل وكل ذلك يمثل الإطار الحضري للعالم الإسلامي، وكذلك أساس المشروع الإصلاحي القائم على خطوات إصلاحية نحصرها في اتجاهين: الاتجاه الأول: دراسة الماضي دراسة واعية مع فهم منتجاته، لأخذ كل ما هو إيجابي وترك كل ما هو سلبي وإلغاء أثره في الواقع الثقافي والفكري.
- الاتجاه الثاني: الالتزام بإطار القرآن الكريم والسنة النبوية إذ لابد من تنظيم تعليم القرآن لأنه يوحى من جديد إلى ضمير المسلم الحقيقة القرآنية إلى التزام سلوك السلف الصالح لتجديد ميكانيزمات التطور الاجتماعي في كل مجالات الحياة⁽²³⁾.
- إن المشروع الإصلاحي لابد أن يتم من خلال تصفية العادات والتقاليد وكذلك الإطار الخلقي والاجتماعي من العوامل القاتلة لنمو العوامل الحية الداعية إلى الحياة ولا يتم ذلك بفكر جديد. لأن المنطلق لكل إصلاح ونهوض إسلامي إنما يبدأ من إصلاح مناهج الفكر لدى المسلمين وبناء النسق الثقافي الإسلامي أي إصلاح عالم الأفكار و تنقيته لتحقيق الأصالة الإسلامية وتصويب الرؤية الحضارية وتمكن الأمة من الشهود الحضاري وبناء العقل القادر على استلهاص الأصالة وهضم الحداثة وتمثلها معاً في مشروع حضاري إسلامي معاصر متكامل متحرر من أزمة الفكر وأوهامه وخطأ المنهج وانحرافات ومدر ك لأضرار الغياب الثقافي وأفاقه وضواغط القصور الحضاري وإصاباته⁽²⁴⁾.
- كما أن الأفكار لابد أن تقترن بالتطبيق لأن اقتران الفكر بالعمل هو أساس التقدم، ولابد على الثقافة من إعادة التوازن بين أنا الفرد وبين قيم الكم والكيف، لأن هذا التوازن يساهم في تحول الأفكار إلى عمل إضافة إلى ضرورة وجود الأصالة كمنطلق لصنع استقلال حضاري، في كل المجالات من أجل تحديد الأهداف الموجودة، و كان ذلك كل ما جاء في مشروعه الإصلاحي الذي تشكل أسسه قواعد المنهج لبدأ حركة بناء جديدة و صنع تاريخ يؤدي إلى قيام الحضارة.

الهوامش:

(٥) - مالك بن نبي: هو مفكر إسلامي عالمي، ولد سنة 1905 في مدينة قسنطينة في الجزائر، حيث تابع فيها دروسه الأولى، ثم انتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس (فرنسا) حيث تخرج سنة 1930 كمهندس كهربائي. ولقد إتجه إهتمامه منذ البداية نحو تحليل الأحداث و الأوضاع المحلية والعالمية التي كانت تحيط به. وقد أعطته، في هذا الإطار، ثقافته الواسعة والمنهجية قدرة على إبراز مشكلات العالم المتخلفة باعتبارها قضية حضارة بالأساس. فوضع بذلك مؤلفاته تحت عنوان "مشكلات الحضارة". في باريس أصدر باللغة الفرنسية: الظاهرة القرآنية، لبك، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، الفكرة الإفريقية الآسيوية، بمناسبة إنعقاد مؤتمر باندونج، وفي سنة 1956 سافرة إلى القاهرة حيث طبعة له وزارة الإعلام هناك باللغة الفرنسية كتابه الموسوم بـ "الفكرة الإفريقية الآسيوية". عمد في القاهرة بعد إتصاله بالعديد من الطلبة إلى ترجمة مؤلفاته الأولى إلى العربية، ثم أصدر بقية مؤلفاته باللغة العربية بعد ترجمة بعضها وكتابة بعضها الآخر باللغة العربية مباشرة، إنتقل إلى الجزائر سنة 1963 حيث عين مدير للتعليم العالي، وأصدر فيها المؤلفات التالية: اتفاق جزائرية، يومية شاهد للقرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي المسلم في عالم الاقتصاد في سنة 1967 إستقالة من منصبه ليتفرغ بذلك للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية. توفي بتاريخ 1973/10/31 في الجزائر.

- 1 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ط4، دمشق، الفكر، 1987، ص 83.
- 2 - الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الإنجليزية، ج1، الشركة العالمية للكتاب 1994، ص 320.
- 3 - إبن خلدون، مقدمة إبن خلدون، ط1، بيروت 2003، دار الفكر، ص 174.
- 4 - محمد عبده المعطي وآخرون ...، تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، ط1، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ص 25.
- 6 - أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، درا النفائس، بيروت، ط 1 + ط2 (1984 - 1986)، ص 134 نقلا عن ملك بن نبي، النجدة ص 05.
- 7 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ط3، دمشق، دار الفكر 1977، ص 23 - 24.
- 8 - مالك بن نبي، شروط النهضة، 50.
- 9 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شهين، دمشق، دار الفكر، 1981، 198.
- 10 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 144.
- 11 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 73.
- 12 - مالك بن نبي، مجتمع، ص 102.
- 13 - مالك بن نبي، مجتمع، ص 104.
- 14 - نفس المصدر السابق، ص 184.
- 15 - شروط النهضة، ص 74.
- 16 - محمد طهاريت، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، الجزائر، دار التونسية 1984، ص 11.
- 17 - القرآن الكريم، سورة هود، الآية 88.
- 18 - إبن كثير، تفسير القرآن، ضبطه الدكتور محمد عبد الكريم الدمشقي، ج2، سوريا، دار القام العربي 2004 ص 455.
- 19 - القرآن الكريم، سورة النساء الآية 114.
- 20 - ابن كثير، مرجع سبق ذكره، ص 564 - 565.
- 21 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 69.
- 22 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 55.
- 23 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 72.
- 24 - جابر العلواني، إضلاع الفكر الإسلامي، الجزائر، دار للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة 1981، ص 193.